

# ترتيل القرآن "قراءة تأويلية"

الأستاذ الدكتور  
حاكم حبيب الكريطي  
جامعة الكوفة - كلية الآداب



## ترتيل القرآن "قراءة تأويلية"

الأستاذ الدكتور  
حاكم حبيب الكريطي  
جامعة الكوفة - كلية الآداب

### المقدمة:

يسعى هذا البحث إلى النظر في (ترتيل القرآن) على وفق رؤية جديدة، تستمد جدتها من الاستعانة بالتأويل المأمور به في القرآن الكريم. ونعني بالتأويل هنا، استثمار دلالات الجذر (رتل) من خلال العودة إلى المعجم العربي، وموازنة تلك الدلالات بما جاء في القرآن الكريم من استعمال للجذر نفسه، ومن هنا سيتمظهر التأويل الذي نريده لبيان مفهوم (الترتيل) الذي نحسبه جديداً هنا - إن شاء الله تعالى -، وسيحقق لنا هذا الأمر طريقاً آخر لإدراك المعنى القرآني يقترب مرة ويبتعد مرات عما قال به المفسرون، الذين اعتنوا - في الغالب - بعلوم القرآن أكثر من عنايتهم بالمعنى الذي تؤديه اللغة، ولعلنا لا نبتعد عن جادة الحق إذا قلنا: إن الاشارات القرآنية الكثيرة إلى عربية النص القرآني، تدعونا إلى تمثل اللغة تمثلاً تاماً في أي نظر في محاولة تدبر معاني الآيات القرآنية.

(رتل) في الاستعمال الاجتماعي.

جاء في لسان العرب<sup>(١)</sup>:

١- الرتل: حسن تناسق الشيء.

٢- ثغر رتل: حسن التنضيد، وقيل المفلج، وقيل بين أسنانه فروج

لا يركب بعضها.

- ٣- الرتل: بياض الأسنان وكثرة مائها.
  - ٤- كلام رتل: مرتل حسن على تؤدة.
  - ٥- ورتل الكلام: أحسن تأليفه وتمهل فيه.
  - ٦- الترتيل في القراءة: الترسل والتبيين فيها من غير بغي.
  - ٧- الترتيل في القرآن: التحقيق والتبيين والتمكين.
  - ٨- ترتيل القراءة: التآني فيها وتبين الحروف والحركات تشبيهاً بالثغر المرتل.
- إن النظر المتآني في المعاني السابقة، يعطينا ثلاثة معانٍ كبيرة تستوعب المعاني الثمانية كلها، وهذه المعاني:
- ١- المعنى الأول، التنظيم وحسن التنسيق والتنضيد بحيث لا تتركب الأشياء المنضدة على بعضها، وإنما تكون متسقة منتظمة كاتظام الأسنان. وهذا المعنى تجسده المعاني ١، ٢، ٣، ويضاف إلى هذا، الجمال المتمثل بالبياض وكثرة الماء.
  - ٢- المعنى الثاني: يستوعب هذا المعنى تنظيم الكلام وحسن التأليف والترسل والتبيين والتحقيق والتمكين. وهذه معانٍ تحتاج إلى جهد معرفي كبير كي ينالها الإنسان ويتمثلها بعد إدراكها.
  - ٣- أما المعنى الثالث، فيخص القراءة، إذ يكون التآني سبيلاً إليها، حتى يتحقق تبين الحروف والحركات.
- والملاحظ إن المعاني الثلاثة، تتوحد في التنظيم والتحقيق والتنسيق، فتكون هذه المعاني هي الدائرة التي تحتضن معاني الاستعمال الاجتماعي للجذر (رتل) كلها، مع ملاحظة إن الذي يجسد هذه المعاني هو الإنسان، فلا تحقق

هذه الدلالات إلّا بجهده، وتفكيره، كي يحصل لها الاتساق والانتظام حتى تكون كلاماً مرتلاً على حسن تودة (المعنى ٤).

### التأويل في الاصطلاح القرآني:-

ورد الجذر (رتل) ومصدره ترتيلاً في آيتين سندرجهما على وفق ترتيب نزولهما:-

١- ﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْتَلُّ \* قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا \* نِصْفَهُ أَوِ اقْضُ مِنْهُ قَلِيلًا \* أَوْ نُرِذْ عَلَيْهِ وَمُرْسِلَ الْقُرْآنِ  
ترتيلاً﴾ المزمّل ١-٤.

٢- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ  
ترتيلاً﴾ الفرقان ٣٢.

نلاحظ ابتداءً، إن آية سورة المزمّل تتضمن أمراً من الله تعالى للنبي ﷺ بترتيل القرآن، وتشديد أمر الترتيل بالمفعول المطلق الذي جاء لتوكيد فعله.

وإذا استحضرنا معاني الاستعمال الاجتماعي ل- (رتل) بغية الوصول إلى دلالة الترتيل في الآية، نقول: إن الدلالة هنا لا تنصرف إلى ضرب من القراءة، كما جاء في (المعنى ٨)، أي التأنّي فيها وتبيين الحروف والحركات، فمعلوم إن القرآن الكريم نزل بلغة العرب بعد أن وصلت إلى ذروة الإتقان، ووصل أهلها إلى ذروة الإفصاح عن معانيهم من خلال التأنّي وتبيين الحروف والحركات، والنبي ﷺ سيد العرب وأفصحهم ((أنا أفصح العرب بيد أني من قريش))<sup>(٢)</sup>، فلا يبقى مسوغ لان يصرف معنى الآية إلى هذا.

وثمة ملاحظة أخرى، وهي ان نمط قراءة القرآن، أمر الله تعالى به في أول آية نزلت منه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ \* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ \* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ \* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ العلق ١-٤، فالأمر بهذه القراءة جاء

مقروناً بالتدبر والتفكير في خلق الله تعالى بشكل مطلق، والنظر في أسرار الخلق يحتاج إلى هذه كله.

هذا فضلاً عن إن القراءة المأمور بها في القرآن، هي من الله تعالى علم بها النبي ﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ القيامة ١٨، فإذا ثمة ضرب من القراءة علمها الله تعالى للنبي ﷺ وأمره بإتباعها. واستناداً إلى هذا فلا يمكن أن يكون الترتيل ضرباً من القراءة. لأن القراءة صارت معلومة للنبي ﷺ فأمره عز وجل بترتيل القرآن يعني أمراً آخر.

إذا يبقى من معاني الترتيل المأمور به في هذه الآية معنى يتصل اتصالاً وثيقاً بالآية التي بعدها، فقد رتل الله القرآن الكريم ترتيلاً بيناً في سورة الفرقان ٣٢، وبغية ملامسة المقصود بالترتيل تأويلياً، نعود إلى ما ورد في المعنيين الأول والثاني من معاني المعجم، فالمعنى الأول، وهو تنظيم القرآن الكريم وتنسيقه وتنزيده، وهذا يعني إن الله تعالى أمر النبي ﷺ بهذا من الأيام الأولى لنزول القرآن الكريم، لأن سورة المزمل من أوائل ما نزل منه<sup>(٣)</sup> وسرى القول في بيان التنظيم قليلاً.

أما المعنى الثاني فيعني إن الله أمر النبي ﷺ بتبيين القرآن وتحقيقه وتمكينه بعد أن بسط له بيان ذلك - كما جاء في الفرقان ٣١ فيما بعد.

ولكي نستكمل دلالة الترتيل، لا بد من العودة إلى ما قرره المفسرون في هذا الشأن.

### الترتيل في الاصطلاح:-

يمكن أن نصنف أقوال المفسرين إلى صنفين في فهمهم للترتيل.

١- الصنف الأول يتعلق بضرب من القراءة - كما مر - في الاستعمال الاجتماعي<sup>(٤)</sup>.

٢- الصنف الثاني: يتعلق ببيان القرآن تبييناً، وترسيل لبعضه في أثر بعض<sup>(٥)</sup>.

يلاحظ هنا إن أقوال المفسرين في الترتيل اصطلاحياً، لم تبتعد عن الاستعمال الاجتماعي الذي مرّ بنا، بل أخذت منه تماماً، ووقفت عنده، وإذا سلّمنا بأن ترتيب النبي ﷺ للقرآن الكريم هو ضرب من القراءة فماذا نقول في قوله تعالى ﴿وَمَرَّكُنَّاهُ تَرْتِيلًا﴾؟

إن المعقول تماماً أن الترتيل في سورة الفرقان ٣٢ يعني بيان القرآن تبييناً واضحاً، ولا يكون التبيين - بحق - تبييناً إلا إذا نظرنا إلى معاني الآيات القرآنية المتشابهة بعد جمعها في نسق واحد (بعضها في أثر بعض) وترسيه ترسيلاً على النحو المشار إليه.

واستناداً إلى ما تقدم، نقول إن الوصول إلى معنى القرآن الكريم يستدعي أمرين:

**الأول:** ترتيب الآيات القرآنية (آيات الأحكام مثلاً) على رتل واحد بحسب ترتيب نزولها، ثم ملاحظة آية زيادة في المعنى في الآية اللاحقة عما جاء في السابقة. وهذا يعين الباحث عن المعنى القرآني على تمثله تماماً، ويمكن أن يضاف هذا إلى علوم القرآن بوصفه علماً مستقلاً ينهض بمهمة تتجلى في محاولة الوقوف على المعنى القرآني على وفق منهج جديد قديم في آن معاً، لأن القدماء لم يغفلوه تماماً. ولكنهم لم يهتموا به. وجاء النظر فيه مفرقاً على علوم القرآن الأخرى وخاصة علم الناسخ والمنسوخ.

**الثاني:** ترتيب الآيات القرآنية ذات الموضوع الواحد على رتل واحد أيضاً، ولكن ليس شرطاً أن ترتب على زمان نزولها. ومن اجتماع

هذه الآيات تتكشف المعاني التي تحملها، وهنا يحضر قولهم ((الآيات القرآنية يُفسَّر بعضها بعضاً))<sup>(٦)</sup> ونضيف هنا ((ويتمم بعضها بعضاً من حيث الدلالة على المعنى العام أو الخاص على السواء.

إن هذا الفهم للترتيل المأخوذ من الاستعمال الاجتماعي القرآني والاصطلاحى للجذر (رتل) يفتح أمامنا باباً جديداً يمكن أن يضاف إلى أبواب تلمس المعنى القرآني، مع ملاحظة إن هذا التوجيه يتطلب إقامة صلة معرفية متينة بين علوم القرآن وبين الموضوع المراد البحث فيه بغية الوصول إلى المعنى، لأن تلك العلوم لم توضع إلّا لتفسير النص القرآني وتأويله ولا علاقة لها بمباهيته حقاً، فهي كعلوم اللغة التي يستعان بها في التفسير وليست منه<sup>(٧)</sup>.

ومن أجل تطبيق هذا المنهج لابد من أن نطبقه على بعض الآيات القرآنية لنرى إلى أي حد يمكن أن يكون هادياً لنا في الوصول إلى بعض وجوه المعنى القرآني.

### تحريم الخمرة:

قال أغلب المفسرين. إن تحريم الخمرة نزل تدريجياً في الآيات الآتية:-

١- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ البقرة، ٢١٩

٢- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ النساء، ٤٣



٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَمْثَلُ أَمْرٌ جَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ المائدة ٩٠.

ومن أجل الوقوف على دقة ما نتبناه من قضية (ترتيل القرآن) نقول:-

إن آية سورة البقرة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، صريحة في حرمة الخمر، لأن الأثم وعلى وفق هذا المنهج محرم بحسب آية سبقت هذه الآية في النزول. وهي قوله تعالى في سورة الأعراف (٣٣) ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَإِثْمَ وَالْبَغْيِ بغيرِ الْحَقِّ﴾، فالأثم حرام، والخمر فيها أثم كبير<sup>(٨)</sup>.

أما المنافع فهي منافع معنوية تأتي من المقامرة يقول ثعلب في هذا الشأن ((كانوا إذا قاموا فقمروا أطمعوا منه وتصدقوا بالإطعام والصدقة منفعة))<sup>(٩)</sup>.

هذا ما تقوله اللغة، وهو المعول عليه في الوقوف على معاني القرآن، أما ما ذهب إليه بعض المفسرين من الأثم في الآية هو الضرر، فهو تسويغ لمن أجتهد من الصحابة وبقي يعاقر الخمر بحجة إن تحريمها ليس صريحاً في آية سورة آل عمران<sup>(١٠)</sup>.

يقول ابن حزم ((فلما نزلت هذه الآية امتنع قوم من شربها وبقي قوم))<sup>(١١)</sup>. هذا فضلاً عن إن (الضرر) ليس من معاني الأثم، فكيف يُفسر (الأثم) على هذا النحو؟.

بيد إن بعض العلماء جعل هذه الآية حرمة للخمر، فقال ((قال قوم من أهل النظر، حرمت الخمر بهذه الآية))<sup>(١٢)</sup> واستند إلى تحريم الأثم الذي سبقت الإشارة إليه.

والى هذا أيضاً ذهب السيد الطباطبائي في الميزان حينما قال: ((ومن هنا يظهر فساد ما ذكره بعض المفسرين: إن آية البقرة ما كنت صريحة في الحرمة))<sup>(١٣)</sup>.

والآن ما الذي يمكن أن يقال في آية سورة النساء ﴿لَا تَقْرَأُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَامَى﴾ وهي تلي آية سورة البقرة في النزول، إذ كيف يتسق هذا مع منهج الترتيل في آيات الأحكام - كما مر بنا -.

إن التمسك بترتيب النزول يُغرينا، بل يحتم علينا أن نفكر بتوجيه تأويلي آخر يستند إلى اللغة، وعودة إلى المعجم ستعطينا ما قد يعيننا على تصور تأويلي لما نريد. جاء في لسان العرب:-

١- السكران خلاف الصاحي.

٢- السكر نقيض الصحو.

٣- السكر ثلاثة سكر الشباب، وسكر المال، وسكر السلطان.

فإذا استبعدنا سكر الخمر في الآية لأنها حرمت في سورة البقرة - كما مر - يكون معنى السكر هنا واحداً من المعاني الثلاثة المشار إليها - سكر الشباب أو سكر المال أو سكر السلطان. وهكذا فلا مسوغ إذاً لأن تعد هذه الآية من آيات تحريم الخمر. وقد ذهب ثعلب إلى القول عن الآية ((إنما قيل هذا قبل أن ينزل تحريم الخمر)<sup>(١٤)</sup> ظناً منه أن المراد بالسكر هنا سكر الشراب، بيد أن ابن منظور أضاف معنى آخر للسكر هنا ونسبه إلى غير ثعلب إذ قال ((إنما عنى هنا سكر النوم))<sup>(١٥)</sup>.

وهذه المعاني الثلاثة مما يُشغل فكر المسلم ويجعله لا يعي ما يقول في صلاته، ومن هنا جاء هذا النهي عن الاقتراب من الصلاة في حالة الذهول

وشرود الذهن والانشغال الحقيقي بشؤون الدنيا، لأن المعاني الثلاثة الأولى تظهر تمسك الإنسان بحب الدنيا وهذا ما لا يستقيم مع ما يريد الله تعالى من الإنسان حينما يأتي إلى الصلاة. أما المعنى الرابع وهو سكر النوم، فهذا وإن اختلف عن المعاني الأولى، إلا إنه يُبقي الإنسان في نصف وعي إن لم يكن قد انتبه حقاً فنهى الله تعالى عن الاقتراب من الصلاة في هذه الحال.

ورواية أخرى تؤيد ما أوردناه هنا، فقد روي ان الإمام أبا الحسن عليه السلام، فسّر السكر هنا بسكر النوم، يقول عليه السلام ((**لَا تَقْرُؤُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى**) يعني سكر النوم، يقول وبكم نعاس يمنعكم أن تعلموا ما تقولون في ركوعكم وسجودكم وتكبيركم))<sup>(١٦)</sup>.

وثمة روايات تستكمل لنا هذه الدلالات التي برزها الترتيل لآيات الخمر. فعن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال ((لا تقم إلى الصلاة متكاسلاً ولا متقاسماً ولا متماثلاً فإنها من خلل النفاق - فإن الله نهى المؤمنين أن يقوموا إلى الصلاة وهم سكارى يعني من النوم))<sup>(١٧)</sup>.

ولو تأنى بعض المفسرين ومن أهتم بدراسة القرآن الكريم ونظر في هذه الآية والروايات الصحيحة، لكانت النتيجة توجيهاً للمعنى القرآني على وفق ما تقرره اللغة التي نزل القرآن الكريم بها، مع عطف النظر على الروايات في الحدود التي لا تخالف فيها المعطيات اللغوية، فإن خالفها فعلينا التدقيق في الدلالات الخفية في الرواية بشيء من النظر التأويلي الذي يهيء لنا مناخاً معرفياً، يفتح أمامنا سبل الوصول إلى شيء معقول من المعنى القرآني.

ومن هنا لا تُعد آية **﴿لَا تَقْرُؤُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾** من آيات تحريم الخمر.

واستناداً إلى هذا لا يبقى مسوغ للقول إن ((سياق الآية الشريفة يأبى أن تنزل بعد آية البقرة وآيتي المائة، فإنهما تدلان على النهي المطلق))<sup>(١٨)</sup>. على

الرغم من أننا لم نعثر في حدود ما اطلعنا عليه على رواية تقول بنزول آية سورة النساء قبل آية سورة البقرة وآية سورة المائدة.

أما آية سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَسْرَارُ مَرْجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، فقد جاءت بياناً واضحاً لأولئك الذين قالوا بأن التحريم لم يكن بياناً في آية سورة البقرة - كما مر - فنسوا هنا نهياً مطلقاً عن الاقتراب من الخمر.

### زمن البرزخ:

يصف القرآن الكريم حال الكافرين في لحظة النشور، إذ يتخيلون أنهم لبثوا في قبورهم وقتاً قصيراً قبل أن يدهمهم الحشر، ولفرط هلعهم من أهوال هذا اليوم لم يقدرُوا على بيان المدة التي لبثوها في البرزخ من يوم موتهم إلى قيام الساعة، فراحوا يتأرجحون في تخمين ذلك الزمن، ويكشف لنا ترتيل الآيات المتضمنة لهذا المعنى هذا التآرجح على النحو الآتي:-

يقول الله تعالى ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّرْفِقًا﴾ \* يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿ طه ٤٤/١٠٢-١٠٣.

فهؤلاء المجرمون يكلم بعضهم بعضاً بصوت خفيض عن مدة بقائهم في البرزخ، فخمنوا حدساً ووهماً وظناً، إنهم لم يلبثوا قبل الحشر إلا عشرة أيام، وكأنهم يشيرون إلى قلة هذه المدة بعد تيقنهم بالخلود في العذاب، لما رأوا من أهوال يوم القيامة، فضلاً عما رأوه بأنفسهم من زرقة أبدانهم بفعل النصب والعطش<sup>(١٩)</sup>.

ولعلمهم كانوا ينتظرون من بعضهم من يكشف لهم مدة لبثهم في القبور. قال الله - عز وجل - في الآية اللاحقة ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ طه / ١٠٤، وهو أصلح المجرمين طريقة ((وأوفرهم عقلاً...))

وأكثرهم سداداً))<sup>(٢٠)</sup> رأى على وفق أيام الدنيا، إن الأيام العشرة كثيرة لسرعة قيام الساعة، إذا قوبلت بأهوال يوم القيامة وما لهم من الأيام في النار<sup>(٢١)</sup> فترأى له اليوم الواحد زمناً لبقائه وصحبه في القبر.

ويستكثر هؤلاء المجرمون مدة اليوم التي أخبر بها الأمثل، في الآية السابقة، فظلموا في الحيرة نفسها، وحينما سئلوا عن عدد سنين لبثهم في قوله تعالى ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ المؤمنون ١١٢/٧٣، جاء جوابهم في قوله تعالى ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَاذِينَ﴾ المؤمنون / ١١٣، فهم الآن استقلوا لبثهم فقي الأرض حينما وازنوه بالبقاء الأبدي الذي يلوح لهم يوم القيامة ويعاينونه<sup>(٢٢)</sup>، فنزلوا باليوم إلى بعضهم، إذ لم يستقروا عليه، وكانوا حائرين بعد أن التبس عليهم الزمان، فلم يعرفوا حقيقته.

وفي الآية ٥٥ في سورة الروم / ٨٣، يشعر هؤلاء بانعدام الزمن بين موتهم وبين النشور، قال تعالى ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾، لقد جاء قسم هؤلاء بأنهم لم يلبثوا إلّا ساعة في قبورهم لتوكيد كذبهم في هذا اليوم، أيضاً بعد أن كانوا يأفكون في الدنيا.

إن هذا الترتيب القرآني في بسط وجه من وجوه حياة البرزخ لا يتبين إلّا بوضع الآيات مرتبة على وفق نزولها، (ترتيلها)، وبهذا يبدو لنا التردد والحيرة التي عليها أصحاب النار، فكان الزمن من عشرة أيام إلى ساعة - على وفق ما ورد - كافياً لبيان اضطراب المجرمين يوم الجمع بحيث لم يتوافقوا على زمن واحد مروا به جميعاً.

### خلق الإنسان:

شاء الله تعالى أن يفتح نزول القرآن الكريم بذكر خلق الكون وخلق الإنسان في آنٍ معاً في قوله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾

العلق ١-٢، وذكر خلق الإنسان جاء بصيغة الجمع (العلق)، لأن الكلام هنا عن خلق جنس الإنسان وهي دعوة منه - جل شأنه - للرسول وللمسلمين إلى التدبر في خلق الله تعالى قاطبة مع تركيز على خلق الإنسان، لأنه الأصل الذي من أجله شاء الله أن يخلق موجوداته، واستناداً إلى هذا لم ندرج هذه الآية مع آيات أطوار خلق الإنسان، لأنها تمثل الدعوة الأولى إلى التدبر في الخلق (٢٣).

بين الله تعالى أطوار خلق الإنسان، من بداية خلقه من تراب إلى موته، وإذا عدنا إلى الآيات المباركات التي تتضمن هذا المعنى، وأجلنا فيها النظر على وفق منهجنا المقترح في الترتيل، تتكشف لنا الأطوار الآتية:-

**الطور الأول:** ويتمثل في ان خلق الإنسان يبدأ من النطفة، وهي ماء الرجل القليل، والإشارة إلى هذا وردت أول مرة في سورة النجم في قوله ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ \* مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ النجم ٤٥-٤٦ / ت ٢٣، ثم تكرر ذكرها في سور أخرى، وهذه البداية الحقيقية لخلق الإنسان.

**الطور الثاني:** وهو طور تطور النطفة إلى علقة في قوله تعالى ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُشْرَكَ سُدًى \* أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِّن مَّنِي يَمِينِي \* ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ القيامة ٣٦-٣٨ ت ٣٠، فبعد أن صار الإنسان علقة في الرحم، أوجز القرآن الإشارة إلى بقية لأطوار بإيجاز غني، فذكر إن الله تعالى عدل وأكمل خلق الإنسان وسواه.

**الطور الثالث:** وهنا يذكر الله - عز وجل نعمه على عباده في إتمام خلقهم في قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤْفَىٰ مِنْ قَبْلِ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلَ مَسْمُومٍ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ غافر ٦٧ ت ٥٩.

ذكر الله تعالى هنا أنه يخرج الناس من بطون أمهاتهم صغاراً ضعافاً حتى

يبلغوا أشدهم وتتكامل قواهم، ثم يبلغوا مرحلة الشيخوخة، ومنهم من يموت قبل ذلك، حتى يبلغوا الأجل الذي كتب لهم لا يتجاوزونه، ولعلمهم في هذا كله يعقلوا حجج الله تعالى، وهذا التوصيف لمراحل خلق الإنسان واستمراره في الحياة، خلقاً بعد خلق، يتلمسه الإنسان العاقل في نفسه وفي غيره مما يراهم في الحياة.

**الطور الرابع:** ويضيف القرآن تفصيلاً آخر لمراحل حياة الإنسان في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ \* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ \* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ المؤمنون ١٢-١٤ ت ١١٢.

وهذه المراحل تصف حالة الإنسان في رحم أمه، إذ تحولت العلقة التي أشير إليها إلى مضغة، ثم حول عز وجل. المضغة إلى عظام وكسا العظام لحماً، فتكامل خلق الإنسان، ثم أنشأه الله تعالى خلقاً آخر، والخلق الآخر، هو صيرورة هذه الأطوار المادية إنساناً ذا شعور<sup>(٢٤)</sup>، وقد يشمل الخلق الآخر ما ذكر في الآية السابقة من انتقال العلقة إلى طفل ثم الذهاب إلى الشيخوخة حتى تنتهي الحياة بالموت.

**الطور الخامس:** وهذا آخر المشاهد التي صورها القرآن الكريم لخلق الإنسان، ويتمثل في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّبَيِّنٍ لَّكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِمَّكُمْ مَن يَتَّقَىٰ وَمِمَّكُمْ مَن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَنَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَبْتَتْ مِنْ كُلِّ نَرُوجٍ بِهِجٍ﴾ الحج ٥ ت ١٨ مدنية.

تتمثل الإضافة في هذا المشهد في وصول بعض بني الإنسان إلى أرذل العمر حتى لا يعلم بعد علمه أي شيء. وهذا التوصيف يخص مرحلة الشيخوخة الشديدة التي تختلف عن الشيخوخة المذكورة في آية سورة الحج.

إن هذه الأطوار الخمسة<sup>(٢٥)</sup> تكشف لنا عن حقيقة أهمية الترتيل في بيان المعنى القرآني لأطوار خلق الإنسان، إذ تكشف لنا هذه الحركية انتقال المعنى من دلالة إلى أخرى في الآيات المشار إليها وفي داخل الآية الواحدة وهذا الذي جعل نصوص الآيات المباركة منفتحة في هذا التدرج الرباني في خلق الإنسان، إذ تجلّى الانسجام داخل الآية الواحدة وبين الآيات بما يجعل الدلالات الجزئية تنساب بانتظام معجز مشكلة المعنى الكلي للآيات مجتمعة، فصارت صورة خلق الإنسان بهذا الإعجاز الجمالي والعلمي<sup>(٢٦)</sup>.

والآن ربّ معترض يقول، إن البحث يمكن أن يصنف ضمن (متشابه القرآن)، الذي أُلّف فيها القدماء والمحدثون كتباً كثيرة، وهنا نقول إن المتشابه يوازن بين الآيات القرآنية المتشابهة، وترتيل القرآن كما تبين غير هذا.

وقد يقال أيضاً إن (الترتيل) يصنف ضمن ((الأشباه والنظائر)) التي صنفت فيها مؤلفات كثيرة أيضاً. ويرد على هذا بالقول إن الأشباه والنظائر تعني بيان معنى اللفظ في الآيات التي يرد فيها، ثم بيان الفرق في تلك المواضع. ولكن الذي يُقبل هنا أن ترتيل القرآن هو نمط من تفسير القرآن بالقرآن، ولكن هذا النمط لا يسير على وفق ما أُلّفه القدماء في هذا الضرب من التفسير، لأنهم، إنما كانوا يفسرون الآية بالآية بصرف النظر عن ترتيب نزولها. وهذا قد يتنافى مع الروايات التي حفظت هذه التفاسير، ولنأخذ مثلاً واحداً لبيان ذلك. فقد روي ان عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بَظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ الأنعام ٨٢ ت ٥٤، شق ذلك



على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أينما لا يظلم نفسه، فقال رسول الله ﷺ ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لأبيه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٧).

وهنا نقول إن سورة الأنعام سبقت سورة لقمان في النزول، فكيف تصح الرواية على هذا النحو؟ وقول ابن مسعود نص على القول ((لما نزلت)) ومنهج (الترتيل)، يُبعد لنا ما وقع في الرواية، ويصح القول إن ما جاء في سورة لقمان فسر ما جاء في سورة الأنعام فيما بعد.

لقد أظهر هذا البحث فاعلية منهج (ترتيل القرآن) في الوصول إلى بعض وجوه المعنى القرآني المتلاحمة التي تظهر تماسك الآيات القرآنية ذات الموضوع الواحد بتدرج معجز يجمع مقاصد المعنى. واستناداً إلى هذا سيكون هذا المنهج - إن شاء الله تعالى - سبيلاً جديداً للبحث في المعنى القرآني.

#### هوامش البحث

(١) لسان العرب (رتل).

(٢) سر الفصاحة ٥٩/١.

(٣)

(٤) التبيان ١٦٢/١، تفسير الطبرسي ١٥٧/٢٩، تفسير القرطبي ٢٧/١٩.

(٥) تفسير القمي ٢٩٢/٢، مجمع البيان ١٦٢/١٠، التفسير الصافي ٢٤/٥، تفسير الميزان ٧١/٢٠.

(٦) تفسير الرازي ٢٤٠/١٧.

(٧) المعنى القرآني بين التفسير و التأويل ٥٧.

(٨) فقه القرآن ٢٧٦/٢، التفسير الصافي ٢٤٨/١، تفسير الميزان ١٥٨/٤.

- (٩) لسان العرب (أثم).  
(١٠) تفسير الطبري ٣٣٠/٤.  
(١١) الناسخ والمنسوخ ٢٨.  
(١٢) تفسير القرطبي ٦٠/٣.  
(١٣) الميزان ١٩٤/٢.  
(١٤) لسان العرب (سكر).  
(١٥) م. ن.  
(١٦) تفسير العياشي ٢٤٢/١.  
(١٧) مجمع الفائدة ١٠٤/٢.  
(١٨) الميزان ١٩٤/٢.  
(١٩) الميزان ٢٠٩/١٤.  
(٢٠) ينظر التبيان ٢٠٨/٧.  
(٢١) ينظر مجمع البيان ٥٥/٧.  
(٢٢) الميزان ٧٢/١٥.  
(٢٣) أخذنا هذا المصطلح (الاطوار) من قوله تعالى ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ أَطْوَارًا﴾.  
(٢٤) الميزان ٣٦٣/١٩.  
(٢٥) ثمة بحث على شبكة المعلومات العالمية عنوانه ((مراحل خلق الإنسان على ضوء الكتاب والسنة)) موقع طريق الإيمان.  
(٢٦) ينظر مصادر تفسير القرآن بالقرآن، موقع الدكتور مساعد الطيار.  
(٢٧) صحيح البخاري، ٥٤/٨.

#### قائمة المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم.

- ١- التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠هـ) تحقيق أحمد حبيب العاملي، ط١، ١٤٠٩هـ، مكتب الاعلام الإسلامي.  
٢- تفسير الرازي (مفاتيح الغيب)، فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ)، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٠هـ.

- ٣- تفسير الصافي، الفيض الكاشاني (ت١٠٩١هـ)، تحقيق الشيخ حسين الأعلمي، ط٢، ١٤١٦هـ، مؤسسة الهادي، قم، مكتبة الصدر، طهران.
- ٤- تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل آي القرآن)، محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق صدقي جميل العطار، مطبعة دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ.
- ٥- تفسير العياشي، النضر محمد بن محمود السمرقندي، تحقيق الحاج السيد هاشم المحلاتي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران.
- ٦- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ)، دار احياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ.
- ٧- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي (ت٤١٦هـ)، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، بيروت.
- ٨- صحيح البخاري، محمد بن اسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان، طبعة بالأوكست عن طبعة دار الطباعة العامرة باستانبول، ١٤٠١هـ.
- ٩- فقه القرآن، القطب الراوندي (ت٥٧٣هـ)، تحقيق السيد أحمد الحسيني، مكتبة المرعشي النجفي، مطبعة الولاية، قم، ط٢، ١٤٠٥هـ.
- ١٠- مجمع الفائدة والبرهان، المحقق الأردبيلي (ت٩٩٣هـ)، تحقيق اشتهازي، جماعة المدرسين، قم، ط١، ١٤١٢هـ.
- ١١- مراحل خلق الإنسان على ضوء الكتاب والسنة، شبكة المعلومات العالمية، موقع طريق الإيمان.
- ١٢- مصادر تفسير القرآن بالقرآن، شبكة المعلومات العالمية، موقع الدكتور مساعد الطيار.
- ١٣- المعنى القرآني بين التفسير والتأويل / دراسة تحليلية معرفية في النص القرآني، عباس أمير معارز، اطروحة دكتوراه، كلية التربية - جامعة بابل، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
- ١٤- الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت١٤٠٢هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي، جماعة المدرسين، قم، إيران.
- ١٥- الناسخ والمنسوخ، قتادة السدوسي (ت١١٧هـ)، تحقيق د. حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة، جامعة بغداد، ط٣، ١٤٠٩هـ.